٥ـ وسيلة الغريب اللغوي

لعل الكثير من المثقفين يمر بعبارة لافتة للنظر وهي « غريب الحديث » فيعجب كيف ينطق النبي عليه الصلاة والسلام بلغة يجهلها المستمع فيشكل قطيعة معه ، ويزداد عجبه حين يعلم القدر الكبير من كتب غريب الحديث ، ويسرح به الخيال فيتصور أن معظم الكلام النّبوي غامض وأن ثمّة حجاباً كثيفاً بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين المتلقين من الصحابة ، وأن هذا الحجاب ازداد كثافة في عصرنا ، ولكن هذا التّصور غلط ووهم ، لا يجوزان على النّبوة .

واللافت للنظر أيضاً أن يجهد العلماء في تأليف كتب حول غريب القرآن الكريم وغريب الحديث النبوي ، ونحن نشفع لهم هذا بأن الفكر الإسلامي يرتكز قبل كل شيء على النّص الديني المتمثل في القرآن الكريم والحديث الشريف ، فجاءت العناية من باب العناية بقضيّة دينية .

ولكن لم يخصص العلماء أي بحث حول غريب أحد الشعراء ، وإن اشتملت دواوين الكثير منهم على الغريب الوحشي ، فلم يصنف العلماء في غريب زهير أو أحد الشعراء الوصّافين الذين يعنون بذكر جزئيات من الناقة والسفر ، بل يمكن أن تصنف رسالة في غريب معلقة لبيد وحدها .

وقد يعجب بعضهم من أن نقرأ كتباً كثيرة في غريب القرآن الكريم والحديث النبوي ، مع أن البلاغيين قديماً وحديثاً يطبقون على فصاحة اللفظ المأنوس ، ولم يُمدح شاعر ولا ناثر بأن إبداعه الأدبي حافل بالألفاظ الغريبة .

أـ مفهوم الغريب وكتبه :

لابد أن نوضح مصطلح غريب الحديث من داخل النص ، ونبين وجوده مؤكدين وجهة نظرنا بمصداقية الشواهد من نصوص الحديث الشريف وآراء العلماء .

إن غريب الحديث قضية لغوية تتعلق بالمتن دون السند ، وأصل العبارة غريب ألفاظ الحديث ، هذه القضية اللغوية كان فيها للعلماء المحدّثين واللغويين جهد مشترك ، ومع أن اسمه يوضح معناه ، فلا بأس أن نقبس تعريفه من ابن الصلاح ، لنرى مدى تثبُّت العلماء وتوقّيهم وخشيتهم من التقوُّل على النبي ﷺ ، حيث قال : « وهو عبارة عما وقع في متون الحديث من الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم ، لقلة استعمالها ، هذا فن مهم يقبح جهله بأهل الحديث خاصة ، ثم بأهل العلم عامة ، والخوض فيه ليس بالهيّن ، والخائض فيه حقيق بالتحرّي ، جدير بالتوقي »[1] .

وإننا لنستحسن أن يذكر ابن الصلاح ومن نقل عنه أن منشأ الغرابة قلة الاستعمال ، فالكلمة موجودة في الرصيد اللغوي العام الذي يوازي المعجم في عصرنا ، لكنها لا تستخدم في القسط المستخدم اليومي ، ونرى أن غير المستخدم قد يكون أكثر تألقاً من الجديد المستعمل لاحتوائه التام للمضمون .

كذلك نُجِلُّ استقباح ابن الصلاح الجهل بهذا العلم عند علماء الحديث على وجه الخصوص ، إذ من العيب والنقص أن ينقل الراوي كلاماً لا يفقه مدلولاته ، ويردد ألفاظاً ترديداً صوتياً كأنها لغة أجنبية وليست بالأجنبية .

---

(١) علوم الحديث : ص/ ٢٧٠ـ ٢٧١ .

ثم كان أن حذّر ابن الصلاح من الخوض في هذا العلم ، لأن تغيير معنى الكلمة يلوي عنق النص كله وهذا حرام قطعاً ، وبذلك تحصل قطيعة تامة بين المرسِل وهو النبي عليه الصلاة والسلام والمرسَل إليه أي الناس ، ومع القطيعة فسحة كبيرة للتأولات الباطلة والتقوّل على مقاصد الرسالة المحمدية ، ففي تعريفه لفتات جميلة نافعة .

ويبدو أن بعض العلماء أولعوا بهذا العلم حتى اشتهروا به ، وتتبعوا مفرداته حتى فاقوا بهذا النهج أقرانهم من المحدّثين ، ولكن مع هذا فالشهرة شيء والعلم شيء آخر ، فلا ندّعي أن الأئمة يجهلون الغامض الغريب من الكلام النبوي ، خصوصاً أنهم فقهاء مع كونهم محدثين ، إذ استنبطوا من الحديث فقهاً وأصول فقه .

ولكن يبدو لنا أن إحجامهم عن شرح الغريب يكون أحياناً برادع الخوف أو تكريم أهل الاختصاص ومن يشتهر بهذا العلم ، أو ليبين العالم انشغاله بقضايا أخرى من الدين : الرواية ، الفقه ، فلا يود أن يعتاد عليه السائلون في علم لا يشتغل به .

ومن هذا القبيل أن الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ـ رضي الله عنه ـ سئل عن حرف من غريب الحديث فقال : « سلوا أصحاب الغريب ، فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله ﷺ بالظن فأخطئ »[1] ، هذا مع أن الإمام أحمد عربي فصيح وتتلمذ على الشافعي الذي عُرف بعلوّ الفصاحة .

يجد الباحث إشارات كثيرة في تراثنا تذكر كتب غريب الحديث ، وهي إشارات سريعة معظمها لا يتجاوز اسم الكتاب واسم مؤلفه ، ففي

---

(١) علوم الحديث : ص/ ٢٧٢ .

الفهرست لابن النديم (٤٣٨هـ) نقع على خمسة وعشرين عالماً كل منهم ألّف كتاباً في غريب الحديث[١] ، ومع هذا فإننا نظن أن العدد أكبر .

وقد قال الإمام الخطابي مما يعد ملمحاً عقلانياً جيداً في بداية كتابه « غريب الحديث » : « إلا أن هذه الكتب على كثرة عددها إذا حُصِّلت كانت كالكتاب الواحد ، إذ كان مصنفوها لم يقصدوا بها مذهب التعاقب ، إنما كان سبيلهم فيها أن يتوالوا على الحديث الواحد فيعتورونه فيما بينهم ، ثم يتبارون في تفسيره ، ويدخل بعضهم على بعض »[٢] .

ويذكر أن أول من ألف في هذا المضمار النضر بن شميل (٢٠٣هـ) وهو أحد التابعين ، وكان إماماً في اللغة والنحو وفنون الأدب ، كذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٩هـ) وهو أحد اللغويين المرموقين ، وكتابا هذين العلمَيْن صغيران ، ولم يصلانا .

ونرى أن نسرد بعض الكتب المطبوعة في هذا الفن ، بدلاً من التهويل على القراء بسرد الكتب المطبوعة والمخطوطة والمفقودة ، فنهول على الناس ، فيتسرب الوهم إلى كثير منهم أن في الحديث النبوي سجلات ضخمة من المفردات الغريبة الغامضة التي استعصت على الصحابة الفصحاء ، وكأن الدعوة الإسلامية بحسب هذا الوهم كانت تحفل في المقام الأول بوضع معاجم ، فمن الكتب المطبوعة :

١ـ غريب الحديث لابن قتيبة الدَّيْنَوَريّ (٢٧٦هـ) في مجلد واحد .

٢ـ غريب الحديث للخطابي حمد بن محمد (٣٨٨هـ) ثلاثة مجلدات .

---

(١) الفهرست ، لابن النديم ، ص/ ١٣٥ .

(٢) غريب الحديث ، الخطابي : ١/ ٤٩ـ ٥٠ .

٣ـ كتاب الغريبين القرآن والحديث للهروي أحمد بن محمد (٤٠١هـ) في أربعة مجلدات .

٤ـ الفائق في غريب الحديث للزمخشري محمود بن عمر (٥٣٨هـ) في أربعة مجلدات .

٥ـ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير المبارك بن محمد (٦٠٦هـ) في خمسة مجلدات .

وقد صرف العلماء القدامى قصارى جهدهم وهمهم في جمع الغريب ، ولكن هذه الكتب تشتمل على أحاديث متفاوتة في قدر صحتها ، وهي مقبوسة من الكتب الستة المشهورة ومن المجاميع والمسانيد والمعاجم الحديثية ، فذكروا الصحيح والحسن والضعيف والحديث الواهي بل الموضوع الذي لا أصل له ولا نجده في كتب الحديث ، مثل : « تنكح المرأة لِمِسْيَمِها »[1] ، ويقصد بالمِسْيَم الجمال الظاهر ، كما في صحيح البخاري ح(٤٨٠٢) ، ومسلم ح(١٤٦٦) ، وسنن أبي داود ح(٢٠٤٧) ، والنسائي ٦/ ٦٨ .

فهذه رواية باطلة لا أصل لها ، في حين أن الرواية المعتمدة في كتب الحديث هي : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » ، ولكن الولع بالغريب يشغلهم عن التدقيق بالرواية مما يُطلب خصوصاً من عالم ذي منهج عقلي مثل الزمخشري ، وعالم بالحديث مثل ابن الأثير .

ومن هذا الموضوع ما يمس بالشخصية النبوية ويشكك بسلامة أداء الرسالة السماوية وحكمة الرسول ﷺ ، وهذا يرويه الزمخشري المعتزليّ

---

(١) الفائق للزمخشري : ٣/ ١٦٠ ، والنهاية لابن الأثير : ٤/ ١٨٠ .

من الذين يرفضون الكثير من النصوص النبوية ؛ لمخالفتها لمنهجهم العقلي ، فقد ذكر أنه أتي بأسير يوعك ـ مريض ـ فقال لقوم : « اذهبوا به فأدفوه ، فذهبوا به فقتلوه ، فوداه رسول الله ﷺ »[1] .

وهذا يعني أنه يجهل باللغات أو لم يستطع مداراة وجودها المكاني ومراعاته ، فذكر الزمخشري أنه أراد الإدفاء من الدفء ، فحسبوه الإدفاء بمعنى القتل في لغة أهل اليمن ، فهذه الرواية باطلة ، وهي إن صحت فتنسب إلى خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ، ولم تنسب إلى النبي الكريم ﷺ لا في كتب الحديث ولا كتب السيرة .

وإننا لنأخذ برأي الإمام الخطابي في أنها كتب كثيرة بمنزلة كتاب واحد ، نقر بهذا ونضيف أنه يمكن النظر في هذا الكتاب الواحد لنستبعد الكثير من النصوص لكونها ليست من اللفظ النبوي فيغدو كتاباً صغيراً ، ويصغر أكثر حين ننظر إلى النصوص النبوية نفسها وعناصر تركيبها التي تبعدها عن الغرابة كما سنبين ، فهذه الكتب تتضمن أقوالاً للصحابة أحياناً موافقة للغريب في الحديث مما يعني أن الصحابة فهموا الغريب واستعملوه ولم يعد غريباً وهذا كثير .

بل ثمة مواد لا يجد لها جامع الغريب لفظاً نبوياً فيذكر قول الصحابي ، مثل : مادة (ذرب) التي تبدأ بأن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال : « يا رسول الله ، إني رجل ذرب اللسان ، وعامة ذلك على أهلي ، قال : فاستغفر الله »[2] .

---

(١) الفائق : ١/ ٢٤٨ .

(٢) الفائق : ٢/ ٩ ، وهو بألفاظ أخرى عند ابن ماجه في الأدب : ٢/ ١٢٥٤ ، ومسند الإمام أحمد : ٥/ ٢٩٤ ، وفي إسناده من هو مضطرب الحديث كما نقل محقق سنن ابن ماجه عن مجمع الزوائد للهيثمي .

يريد حدة اللسان وبذاءته ، فهو كلام صحابي أي هو حديث موقوف فضلاً عن أن الكلمة ليست غريبة . ما دام الصحابي يستعملها وليس هو باليمني ذي اللغة المغايرة ، بل هم يذكرون أيضاً مفردات وردت في كلام التابعين .

بل تتضمن هذه الكتب وصفاً لأفعاله عليه الصلاة والسلام ، أي هناك أحاديث فعلية يكون اللفظ فيها للصحابي كذكر « الأطم على أنه الحصن »[1] ، بل يتسع هذا الوصف ليختص بالصحابة ومن هذا أنه ﷺ قال لزيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ : أنت مولانا ، فحجَل[2] ، أي رفع رجلاً وقفز على الأخرى من الفرح .

ولا نظن أنهم يعنون بالحديث كل ما جاء عن النبي ﷺ من قول وفعل وصفة وأقوال الصحابة والتابعين وصفاتهم كل هذا في قضية لغوية خاصة باللفظ ، فالمفروض أن يقتصر البحث على اللفظ النبوي وحده ، فالتعريف الشامل للحديث كما نجد تطبيقه في كتب الغريب هو تعريف خاص بالفقهاء الذين يستنبطون الأحكام ، فيلزمهم كل هذا .

كذلك ننبه على أمر مهم ، وهو أن كثيراً من الألفاظ ترد في كتبهم على أنها غريبة ، ونرى أنها كلمات مأنوسة متداولة من خلال سياق الكلام ، وإذا كانت معهودة عندنا فكيف هي بالنسبة للصحابة ومن تبعهم ؟

ومن هذا : الحديث الذي ذكره الزمخشري في مادة (ألس) : « اللهم إنا نعوذ بك من الألس والألق والكير والسخيمة »[3] . وقال :

---

(١) انظر الفائق : ١/ ٤٧ .

(٢) الفائق : ١/ ٢٦ ، مسند الإمام أحمد : ١/ ١٠٨ .

(٣) الفائق : ١/ ٥٥ ، ولم أجده في كتب الحديث ، والسَّنّوت : العسل .

والألس اختلاط العقل ، قال المتلمس : إني إذن لضعيف الرأي مألوس .

وقيل : الخيانة ، قال الأعشى : هم السّمْنُ بالسّنوت لا ألسَ فيهم .

الألس : الجنون ، وألس فهو مألوس ، وقيل : الكذب . . . .

فهو يبين أن الكلمة وردت عند شاعرين سبقا البعثة النبوية ، فهي غير خافية على الصحابة ، واحتجاجه بالشعر يدل على دوران الكلمة وتداولها كما نعرف عن شهرة الشعر وانتشاره بين القبائل[1] .

ونختم الشواهد من الأحاديث المفهومة الخالية من الغرابة بأن الزمخشري ذكر في مادة (دعب) « أن النبي ﷺ كانت فيه دعابة »[2] .

وهذا حديث في صفاته لا من ألفاظه ، ولكنه يردفه بحديث قولي أنه ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما : « أبكراً تزوجت أم ثيباً ، قال : فهلا بكراً تداعبها وتداعبك »[3] .

ولا نظن أن دلالة المداعبة مما يخفى على معاصري الزمخشري ، ناهيك عن معاصري البعثة النبوية ، ولكن يبدو لنا أنهم اتبعوا الترتيب المعجمي في تصنيف كتبهم ، واحتاجوا إلى مواد تسدّ مكان الأحرف جميعها ، فذكروا الغريب والمعروف متجاوزين عناوين كتبهم ، ومقدمين المعارف اللغوية للمثقف المطلع والعامي الجاهل معاً .

ولا يمكن أن نظن أن ما جمعوه رصيد نبوي يضاف إلى ما جاء في كتب الحديث المعتمدة ، إنما هو تصنيف اختصاصي وهذا يذكرنا بتعجب

---

(١) الفائق : ١/ ٣١٧ ، وهو عند مسلم في المساجد (١١٤٣) ، والمسند : ١/ ٢٥٠ والدارمي في السير : ٢/ ٢٢٤ .

(٢) الفائق : ١/ ٤٢٥ ، والمسند : ٣/ ٦٧ .

(٣) الفائق : ١/ ٤٢٥ ، واللفظ في الكتب الستة وغيرها : تلاعبها وتلاعبك .

بعض مدعي الثقافة الذين يتعجبون من كثرة كتب الحديث بين الصحاح والسنن والمسانيد والمجاميع ، ويظنون أنها أقوال كثيرة غير متكررة ، وينسون أن الحديث الواحد يتكرر في عدة أبواب عند الإمام البخاري وحده ، يطلقون هذا الحكم من الخارج ومن شكل المجلدات من غير الولوج إلى داخل الكتب لاستيفاء الموضوعية العلمية التي يدّعونها .

يقول الرافعي (١٩٣٧) رحمه الله : « تركوا أن يتوسعوا في تفصيل ما أجمعوا عليه ، وأن يعتلوا له بأسبابه ، ويعرضوا له من وجوهه ، ويستقصوا فيه إلى أوائله ، ويأخذوه من نشأته ، حتى إن الذين وضعوا الكتب الممتعة في علم غريب الحديث لم يتعرضوا له ، ولم يقولوا فيه قولاً ، مع أنه مبنى علمهم ، وحجة تأليفهم ، وله منصب الحجة ، وإليه غاية الرأي ، بل اجترؤوا ـ عفا الله عنهم ـ ببيان اللفظ الغريب وتفسيره ، وصرفوا أكبر همهم إلى الإكثار من الجمع ، وإلى صحة المعنى وجودة الاستنباط »[1] .

وهكذا كان عملهم دراسة خارجية لا تعنى كل الاعتناء بالنص نفسه ، لا من جهة تركيبه الفني ولا من جهة الدواعي الفكرية والدينية لورود مثل هذه النصوص ، ولكن لا يعني هذا إطلاقاً أننا نغض من شأن أسلافنا ، ففي جهدهم التجميعي إسهام شريف في حفظ اللغة العربية ، فقد اتكأت المعاجم خصوصاً المتأخرة منها اتكاءً كبيراً على كتب غريب الحديث مستشهدة بها ، كما أنهم فهموا الجوانب الفنية .

ولكنهم لم يبسطوا القول في العامل الفني لمبدأ الغرابة ، فلا نظن أن الخطابي والزمخشري وابن الأثير وغيرهم كانوا يجهلون الجوانب الأدبية

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي ، ص/ ٣٢٢ .

في الكلمات الغريبة ، وسنذكر فيما يأتي أربعة أبعاد تبين أسباب ورود الغريب من داخل النص وخارجه :

ب ـ دواعي الغريب النبوي :

١ ـ البعد الزماني :

ونريد ههنا العوامل الزمنية التي دعت إلى تأليف كتب غريب الحديث ، فالعرب كانوا فصحاء خُلَّصاً ، يعرف كل منهم معظم ما جاءت عليه لغة الحديث النبوي ، ثم إن المعجم العربي المستخدم في الحياة النبوية كان كبيراً بالنسبة للعصور التالية .

وتبعاً لهذا يمكن أن نفترض وضع كتاب في عصرنا يشتمل على غريب الحديث ويجيء أضخم من كتاب الفائق أو النهاية ، لأن الناس اليوم بعيدون كثيراً عن استخدام الرصيد اللغوي الكلي ، وبفعل الابتعاد عن الدين يتحتم وجود الجهالة باللغة التي تحمل الدين ولهذا عزا ابن الأثير في مقدمة كتابه صغر كتاب أبي عبيدة في الغريب إلى سببين :

١ ـ أنه كان مبتدئاً ومبتكراً لأمر جديد لم يتطرق إليه سابقوه .

٢ ـ أن الناس كانت عندهم معرفة بالمفردات ، والجهل بالمفردات قليل عند الرعيل الأول .

وقد يحدث امتزاج العامل الزماني بالعامل المكاني ، فللموقع الجغرافي أثر في تزايد انتقال الكلمة من المعهود إلى الغريب ، ونفهم أن الغريب نسبي ما بين العصور ، فما كان معهوداً يصير غريباً مع مرور الزمن لقلة الاستعمال وتفشّي العامية والرطانة ، وما كان يتعارف على غرابته كما في الكتب هو مأنوس في أغلبه لدى الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ .

ويمكن أن نقدم شاهداً من الحديث ، إذ يقول ﷺ : « تراصّوا في الصلاة لا يتخللكم الشيطان ، كأنها بنات حَذف » وروي : « رصوا الصفوف لا يتخللكم الشيطان كأولاد الحَذف قيل : يا رسول الله ، وما أولاد الحَذف ؟ قال : ضأن سود جُرْد صغار تكون باليمن » ويقول الزمخشري : كأنها سميت حذفاً ، لأنها محذفة عن مقدار الكبار[1] .

فلا شك أن تطور الحياة ينسي المجتمع هذه الجزئية من حياة الرعية البدوية ، والصحابة حَضَر لا بَدْو ، والمجتمع العباسي مثلاً أكثر تمدناً وتحضراً ، فغياب هذه الكلمة عن الاستعمال وارد ، ومعرفته عليه الصلاة والسلام بمثل هذه المفردة تعني أن المخزون الفكري في ذهنه الشريف أوسع من مخزون الصحابة ، إذ لا كلام من غير فكر أو لا دال من غير مدلول كما يقرر علم اللغة اليوم . ثم إنها دخلت سجلهم اللغوي ، فكيف يصح أن تكون أو تظل غريبة .

وإدراكه عليه الصلاة والسلام للغريب دليل إعجاز ، لأنه خرج من بين أظهرهم ، فاختصرت له المسافات ليعرف اللغات ، وجمعت له المعارف لينقل الرسالة السماوية ، ويبلغها تمام التبليغ ، وليس كل العرب فصحاء ، وإلا ما مدح النبي عليه الصلاة والسلام بالفصاحة بعد البعثة ، فهناك مقصرون ، وهناك تفاوت ، وهناك كلمات مثل العيّ ـ أي التقصير في البيان ـ ، وهكذا نفهم التفضيل في الحديث السابق : « أنا أعربكم » .

ونضيف أن النقد الأدبي اليوم صار يقرر أن لجوء الأديب إلى اللفظ الغريب يكون لقوة التأثير ، ولا سيما إذا كانت الصورة المرسومة مما لا يألفه الناس في الحياة الجارية ، فالمضمون هو الذي يتطلب الشكل

---

(١) الفائق : ١/ ٥٧ ، وهو بألفاظ أخرى في المسند : ٤/ ٢٩٧ ، وأبو داود في الصلاة (٦٦٧) ، والنسائي في الإمامة : ٢/ ٩٢ .

المناسب في الأدب الرفيع ، وهذا يعني استحسان اختيار الغريب على أنه وجهة فنية ناجعة ، كذلك أية لفظة قديمة يمكن أن يستخدمها الأديب مهما تقادمت عليها العصور ، فتصبح مألوفة لا ينكرها الفكر الإنساني ، لأنها على بعدها تظل من الرصيد اللغوي .

٢ـ البعد المكاني :

ونقصد به أثر انغلاق الأصقاع البعيدة عن مركز الدعوة الإسلامية ، واتفاق القوم هناك على ألفاظ وتداولها ، فلا تكون معروفة في الحجاز ، ويلتقي النبي الأكرم ﷺ بالوفود المقبلة على الإسلام ويحاورهم بلسانهم الغريب ، ولو أنه حاورهم بالقرشية لعُدَّ فظّاً في نظرهم مما يذكرهم بالآية : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، إذ يأبى هذا العربي أن يتخلى عن دائرته اللغوية فتبطل الدعوة .

وهذا أمر مهم ينبغي أن يتخذه الدعاة ضابطاً لهم في مواءمة الأقوام التي يدعونها إلى الدين الحنيف ، من حيث اللغة والفكر والعادات والتقاليد ، إنها دروس نبوية خالدة ، وليس في الأمر إغراب بقصد التعتيم ، بل هي غرابة في المفردات لا غرابة في التراكيب أو في الإسقاطات النفسية والترميز المغرق .

وعلى أية حال يذكر العلماء لقاءه بالوفود وخطبه في باب البلاغة بالتأكيد على معرفة واسعة باللغة ، ونزيد أنها دلالة على مراعاة مقتضى الحال وامتلاك الحالة النفسية والسيطرة على الموقف ، فإن من مقتضى البلاغة كما أقر البلاغيون قديماً أن يخاطب كل قوم بما يفقهونه وتلتذ آذانهم له .

فكان ذكر الغريب بياناً في نظر بعض القبائل يقع في قلوبهم كما صارت الأسلوبية في النقد الأدبي الحديث تؤكد تكييف صيغة الخطاب

بحسب أصناف الذين يخاطبهم الأدب ، فيخاطب الصغير بما لا يخاطب به الكبير صياغة ومضموناً ، ويخاطب الرجل بما لا تخاطب به المرأة ، ويفسر اللغويون هذا المنهج بأن الأديب لا يسعى إلى الإفهام فحسب ، فثمة سعي إلى زيادة التأثير في المخاطب .

ونستشهد بالحديث الذي يوضحَ من النص نفسه طبيعة الغرابة ودواعيها ، فقد رُوي أن رجلاً سأل النبي ﷺ : « أيدالك الرجل امرأته ؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام : إذا كان ملفجاً »[1] ، ولربما يخطر بالبال استفهام الرجل الغريب عن تدليك المرأة ، ولكن يدالك يعني يماطل ويؤجل ، ومُلْفَج يعني مغلوب محتاج ، وهكذا وصل المعنى للرجل فاستراح إضافة لاستراحته إلى الجواب بلغته .

والنبي عليه الصلاة والسلام يكره التكلف والتشدق والإغراب ، وإذا كانت هذه هي النظرية لديه ، فلا وجود للغريب عنده هنا ، إلا لموافقة الموقف واستيعاب الحالة النفسية لدى السائل ، واستقراء نصوص الحديث النبوي يؤكد تماماً أن الغالب على البيان النبوي هو الوضوح ، وهذا من طبيعة الرسالة السماوية ، وجاء في المسند : ٢/ ٢٦٥ ، وسنن أبي داود ح(٢٨٢٧) قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه كما تتخلّل البقرة » .

بل إننا يمكن أن نفسر كرهه للسجع بسبب ادعاء الكهان علم الغيب بالإضافة إلى ما يتلفظون به من إغراب في اللفظ وتعسف ووعورة وتكلف ، ووسم التشدق بأنه من آفات اللسان المؤدية إلى عذاب عظيم إلى جانب آفة الغيبة والاستهزاء والكذب والثرثرة .

وإن كان الإغراب سلوكاً عقلياً مزاجياً لا خلقياً بحتاً ، لكن ومن هذا

---

(١) الفائق : ١/ ٤٣٧ .

القبيل الحديث الذي ذكروه في كتب الغريب : « من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد دَمَر »[1] ، ودمر على القوم : هجم عليهم بمكروه ، ومنه الدمار أي الهلاك ، وقد يكون للكلمة معنى معروف سابق ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى معنى جديد أو تكون مستعملة في إحدى القبائل بهذا المعنى لكن أصحابه يجهلونها ، فعندما نطق بها صارت مستعملة .

ويبدو لنا أن غرابة الكلمة تناسب غرابة المقام ، وهي أن يتدنى مستوى الإنسان ، لينظر تلصصاً وخفية من شقوق الباب كالمراهقين المرضى مما ينافي المعهود ورجاحة العقل .

ولم يكن الغريب متكلفاً ، فهناك اللقاء مع الوفود وكذلك كتابة الرسائل ، فليس ثمة تمحيص وإعادة صياغة كما جرى عند عبيد الشعراء في العصر الجاهلي كزهير بن أبي سُلمى والذي يستدعي الانتباه أن الغريب الخشن نُطق عن وحي ، وليس عن تجربة إنسانية ، لأن صفات النبي عليه الصلاة والسلام الجسدية والخلقية والفكرية الذهنية تستبعد وجود مثل هذه الألفاظ في لسانه .

٣ـ البعد الديني :

وقد سعى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى إثارة الصحابة الكرام وإقناعهم ، وقصد إلى تفاعلهم مع كلماته الغرّاء وتفهمهم المعمَّق لمدلولاته بوسائل متعددة مثل التشويق بالتساؤل أو إنشاء الحوار أو الإجمال والتفصيل .

كذلك اتكأ على اللفظة الغريبة التي تقوّي الانتباه وتستجلب الأذهان

---

(١) الفائق : ١/ ٤٣٧ ، ولم أجده في كتب الحديث بلفظ « دمر » شاهد كتب الغريب ، بل هو عند الإمام أحمد بلفظ « فقئت عيناه » المسند : ٢/ ٥٢٧ .

والقلوب حوله ، وربما كانت الكلمة غريبة بوساطة الإسلام والمنظور الجديد للدين ، إذ ذكر مفردات لا يعرفون مسمياتها في الأرض ، لأنها من عالم الغيب ، فليس كل ما يسأل الصحابة عن معناه من الغريب اللغوي وهذا ما يمكن أن نسميه بلغة الأصوليين : الحقيقة الشرعية .

من هذا الحديث الذي رواه الترمذي ح(٢٣٨٣) : « تعوذوا بالله من جب الحزن ، فقالوا : يا رسول الله ، وما جب الحزن ؟ قال : وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مئة مرة ، قيل : يا رسول الله ، ومن يدخله ؟ قال : القراء المُراؤون بأعمالهم » .

فالجب والحزن دلالتان معهودتان ، ولكنه يريد مكاناً لا يعرفونه ، فالمدلول هو الغريب هنا .

ومنه ما روي في سنن أبي داود ح(٤٠٨٤) ، وصحيح ابن حبان (١٢٢١) أنه ﷺ قال لأبي تميمة الهُجَيْمي : « إياك والمَخِيلَةَ ؟ فقال : نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال : سَبْل الإزار » .

ونرى أن الكلمة متصلة بالخيلاء وهو موجود في الحديث ، ولعله يتصل بالخيل وتبختره من باب الاشتقاق اللغوي الذي تفخر به العربية ، وأطلق مجازاً على سبل الإزار الذي هو من مستلزمات الكبرياء .

ويكثر في الحديث أن يصعد بالفكرة بذكر أمر غريب يستدعي استفهاماً من الصحابة ، ثم يجيب منتهياً إلى ما يرمي إليه من غرس في النفوس المؤمنة ، ونتيجة للدافع الديني أدخل عليه الصلاة والسلام إلى العربية الكثير من المفردات ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام كما ورد في سنن الترمذي ح(٢٠٠٧) : « لا تكن إمّعة » . أي فاقد الرأي لا يعرف مع من يكون ، فبلغ من فصاحته وقدرته على البيان أنه وضع كثيراً من المفردات وضعاً جديداً .

ونظير هذا القول كما جاء في صحيح مسلم ح(٦٠٢) : « إذا ثُوِّبَ بالصلاة فأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » ، قال الزمخشري : « الأصل في التثويب أن الرجل كان إذا جاء مستصرخاً لوّح بثوبه ، فيكون ذلك دعاء وإنذاراً ، ثم كثر حتى سمى الدعاء تثويباً ، وقيل : هو ترديد الدعاء ، تفعيل من ثاب : إذا رجع ، ومنه قيل لقول المؤمن : الصلاة خير من النوم : التثويب » .

فجذر الكلمة موجود في العربية وتطورات دلالاته مع الاستعمال إلى أن جاء الإسلام ووسَّع من دلالتها ، وجعلها لترديد آخر الأذان ، وهذا من التطور الدلالي وهو من الحقيقة الشرعية ، ويفهم من النظر الدقيق إلى الاشتقاق ومعرفة الأصل اللغوي ، مما يستبعد قصر الأمر على الغرابة وكثير من الكلمات الغربية في كتب غريب الحديث كان لوجودها هذا البعد الديني .

٤ـ البعد البلاغي :

وهو بعد يتصل بالبعد الديني ، ولكنه ينفرد عنه بوضع اشتقاقات لغوية مبنية على سبيل الاستعارة المجسمة للمجردات ، فالأصل معروف ، ولكنّ الصيغة لم تستعمل ، وهذا يبعد الكلمة عن معناها الحقيقي إلى المجاز فهي كلمة غريبة عن المجال الحقيقي واللغة العادية فتغدو جمالية لا مجرد غرابة ، بلاغية وأهدافها دينية ، ومن هذا ما ورد في صحيحي البخاري ح(٤٩٢١) ومسلم ح(٢١٣٠) : « المتشبع بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثوبَيْ زور » .

والمتشبع يتظاهر بأنه شبعان وليس كذلك ، ومقصد الحديث أنه يتظاهر بالفضيلة وليس بحاصل عليها ، و« ثوبي زور » أي يزوّر على الناس ويدعي التقشف والزهد والصلاح والعلم ، وأصل التعبير أن من

الفقراء من يلبس ثوباً واحداً يدعمه بكُمَّيْن فقط تحت الثوب الخارجي ، فإذا هبت الريح انكشف أمره وتبيّن أنه من الفقراء بثوب واحد ، لأن اللباس الكامل بثوبين : داخلي وخارجي وهما الشعار والدثار .

والأصل اللغوي فعل : شبع ، ثم اشتق منه اسم فاعل مدعٍ لم يستخدم عند سابقيه ، ثم استعير هذا المشتق ليبرز جمالية المتحليّ بفضيلة لم يُرزقها ، وليس من أهلها .

وهذا النص يشتمل على جمالية الاستعارة في التشبع وعلى جمالية تشبيهه بلابس الزور الذي احتوى على استعارة بوساطة الإضافة حيث جُسّم الزور المجرد وأصبح مرئياً .

كذلك ما ورد في سنن أبي داود ح(١٧٢٩) : « لا صرورة في الإسلام » قال ابن الأثير : « استعمل الصرورة التي هي من الصرّ : الحبس والمنع بمعنى التبتل وترك النكاح ، فقد جاءت الكلمة في سياق الاستعارة التصريحية وهي غريبة لهذا الاشتقاق ثم باستعارتها من الاستعمال الحرفي وكأن تارك الزواج حابس نفسه ، وهذا النهج ليس بالغريب الوحشي ، بل هو إغناء للغة وتشكيل جمالي .

ونختم هذه الشواهد بقوله ﷺ في صلح الحديبية كما ورد في سنن أبي داود ح(٤٣٤٦) : « هدنة على دخن وجماعة على أقذاء فيها »[1] ، ويذكّر الزمخشري بهذا النص ثلاث مرات في المواد : (دخن) و(قذا) و(هدن) .

مع أن هذه الكلمات معهودة ليست بغريبة إنما كنى الحديث عن انطواء القلوب على الأحقاد بالدخن الذي يعبر عن الرضا الظاهري ، ثم ذكر

---

(١) غريب الحديث ، للهروي : ٢/ ٢٦٢ ، والفائق : ١/ ٤٢٠ ، ٣/ ١٧٠ ، ٤/ ٩٥ .

استعارة أخرى إذ شبه الاجتماع على فساد الشكوك بالعين التي تغضي على الداء ، فالظاهر سليم والباطن سقيم ، وليس ثمة غرابة ، بل المغايرة الفنية ، وهي الربط بين الهدنة وبين هذين المشهدين الحِسِّيين : الدخان فوق النار والعين فوق المرض .

وقد يذكر المرادف غير المستعمل لدلالة أخلاقية ومن هذا حديثه ﷺ كما في صحيح البخاري ح(٥٨٢٥) ، ومسلم ح(٢٢٥١) وسنن أبي داود ح(٤٩٧٨) : « لا يقولنَّ أحدكم : خبُثتْ نفسي ، ولكن ليقل : لقِسَتْ نفسي » .

فالمعنى الحقيقي لقست : أجهزت على التقيؤ ، ولما كان الخبث مكروهاً وهو المجازي دلّهم على الحرفي المحتوي للمدلول تمام الاحتواء ، لاتصال الخبث بالمآثم والمعاصي ، وههنا موافقة الدال للمدلول وتهذيب للأخلاق ، وتلك خصيصة تشرف بها البيان النبوي ، إذ جاء الإسلام ليرفع من المستوى الإنساني ، ويشذب الأخلاق اللسانية والحركية والقلبية ، أما موافقة الدال للمدلول فقد أفاد منها الفقهاء الذين لا نجد في عباراتهم إلا الدقة والحرفية ، ولا نجد عبارة مائعة أو فضفاضة .

جاء الغريب النبوي في المفردات أي الوحدات اللغوية لا في التراكيب ، فبمعرفة الوحدة ينكشف النص تماماً ، لأن الغرابة في الحديث لم تكن غموضاً ناتجاً عن استخدام ترميزي للمفردات أو استخدام شخصي تكتنفه إسقاطات لا واعية .

ونذكر بأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يهرع إلى بطون المعاجم ليحيي قسراً لغة ميتة ، بل ذكَّرهم بها وعرفهم بها ، وكان الغريب عنده يدل على خبرة بالحياة واسعة تأتَّتْ من التربية الربّانية في رعاية مستلزمات الدعوة، كما أن الغريب الحديثي عربي فصيح وهو ليس من لهجات ميّتة .

كما نذكر بأن الدارسين القدامى والمعاصرين يذكرون غريب الحديث مادحين النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لمعرفته الواسعة للغات ، والكلام الجديد للغريب ، وإدخاله مفردات على الرصيد العربي فحسب ، وكأن القضيّة : أن النبي ﷺ يعرف والصحابة لا يعرفون ، والحقيقة بخلاف هذا التّقييد ، فالنبي ﷺ لم يكن مربياً لغوياً ، بل كان داعية إلى الدين الحنيف فقصد إلى احتواء المفرد للموقف من شتى جوانبه .

إننا لا نبخس حق من جهد في تصنيف الغريب الحديثي ، ولكن نؤكد أن حبهم للنبي ﷺ هو الذي حفزهم على الكتابة في هذا الفن ، وأن ما صح في كتبهم موازٍ لما ذكر في كتب السنة ، فلا يتصور إنسان ضخامة الغريب الحديثي ، بل إن ما صح من الحديث النبوي عموماً من غير تكرار لا يرقى إلى حجم مؤلَّفَيْن من كتب الغريب ، الفائق والنهاية على سبيل المثال .

ونؤكد أخيراً أن الغريب الحديثي على الأغلب لا يقع ضمن أحاديث أصول العقيدة والتشريع والإرشاد ، بل يقع في نطاق الآداب والأخبار ، فالمشهور والضروري بين أفراد الأمة علماء ومتعلمين لا يشتمل على غريب . وهذا أمر على غاية من الأهمية ، لأن هذه القضايا أهم ما جاءت به الأحاديث النبوية الشريفة .

ومقارنة لغوية جادة بين رياض الصالحين الذي جمعه الإمام النووي رحمه الله من الحديث النبوي ، وديوان الفرزدق (١١٠هـ) أو ذي الرمة (١١٧هـ) ، تؤكد ما ذهبنا إليه من أن غالبية الحديث النبوي والمشهور والضروري للمجتمع ليس فيه غريب ، وإن وجد الغريب فليس بالوحشي في غرابته ولا في صوته .

* * *